

مشابهة في الخواص المتقدمة على ما يظهر اذ لم يميز بعضها عن بعض حتى الآن في ما نعلم وفي ضواحي بيروت مكان يسمى البوشيرية ولعل اسمه فرنسي الاصل (امبوشير) معناه مصب النهر لانه قريب من مصب نهر بيروت حيث كان يصب قديماً وهذا المكان مشهور بالملازبا حتى لا بيت احد فيه ويسلم من الحمى . وفي ساحل بيروت كلام يتناقله الناس وهو " قالت حارة حريك للبوشيريا من عجرت عنه رديه علي " دلالة على ان هذين المكانين يتباربان في قتل الناس بالحمى ولذلك لا يستغرب وجود بعوض الملازبا فيهما . وقد اتصل بنا الآن ان المتردادي استاذ التاريخ الطبيعي في المدرسة الكلية الاميركية وجد هذا البعوض هناك فلم تبق شبهة في انه هو سبب انتشارها به .

ويصعب على السكان في تلك المنخفضان ان يتخلصوا من هذا البعوض لان القنوات التي يجري فيها ماء نهر بيروت لري بساتين الساحل طويلة مستوية اذا انقطع جري الماء منها بين عدان وعدان بقي فيها من الماء الراكد ما يكون مخضاً لبعوض الحمى وعوميه فيبيض فيه ويتكاثر . ولا سبيل لهم للتخلص منه الا بتدبير ماء الري حتى لا ينقطع جريه من تلك القنوات . ولو تم اجراؤه كله في القناة العليا وتفرعت منها فروع جانبية على طولها تروي كل الاراضي التي تحتها لبقى الماء جارياً فيها كما في نهر وامتنع تولد البعوض منه لا سيما وان بعوض الحمى لا يتولد الا في الماء الراكد القليل

تاريخ الفلسفة الحديثة

يعتبر المؤرخون زمن ابتداء الفلسفة الحديثة منذ ظهور الفيلسوفين العظيمين باكون وديكارت وهما اللذان ناصبا الفلسفة المدرسية حرباً عواناً فدكا ماقلتها ونسفا حصونها وجعلها اثراً بعد عين

على ان هذا النصر المبين لم يعقد لها بنوده الا وكانت الايام من قبل ظهورها تدهيات النفوس واعدت الخواطر للاخذ بناصرها وتلبية نداءهما لتسخ القديم نسخاً مطلقاً والتسخ على منوال جديد يعنى العلم من رق الحدس الباطل والرمم الفارغ ويجعله حليف الحقائق الراهنة المبينة على الاختبار الطويل والبحث الدقيق

وقبل اطلاق الكلام عن الفاسفة الحديثة وما كان من امرها نذكر تمهيداً لمعة من حالها قبل نغمصها الثوب الجديد وظهورها على هذا الشكل البديع الذي رفع شان الانسانية واعلى

منارها وادرك على الإنسان من المنافع ما لا يقع تحت حساب
لا يخفى ان سقوط الدولة الرومانية الغربية اسقط معه التمدن الروماني واصبحت أوروبا اثر
ذلك السقوط في حالة اقرب الى البداوة منها الى الحضارة كما شهد لنا تاريخها وشهادته حتى
وهي ان انتشار الدين المسيحي في هاتيك الاصقاع وما في تعاليجه من المبادئ السامية والآداب
العالية دفع عن أوروبا استعمال البربرية والخشونة وامسكها عن التيهالك في الجهالة وصير
بمقتضاها الانساني في حالة ارقى كثيراً من حالتها يوم لم تكن بعد قد بزغت اشعة الدين
المسيحي في ارجائها

ولما عمّ الدين المسيحي أوروبا بجملتها نهض نفر من رجاله واخذوا في درس الفلسفة
وتعليمها وما توالى الايام حتى سنة ٨٠٠ م الأ وكانت الفلسفة والعلم بيد رجال الدين ودعائه
علي ان تلك الفلسفة لم تكن الفلسفة اليونانية بتمامها وسائر مذاهبها وطرقها وانما اتخذت عندهم
شكلاً خاصاً حيث انحصرت في منطق ارسطو وفلسفة اوغسطينوس . وجملة القول ان هذه
الفلسفة لم تكن الا الادلة على حقيقة الايمان ولم تكن نشوئها الا تلك الغاية وهي خدمة
الدين والخضوع التام له . وذلك شأن كل فلسفة في بدء امرها ان تكون والدين يداً واحدة
ثم تنفصل عنه تدريجياً وتستقل مع الايام بذاتها . اعتبر ذلك في فلسفة الهند واليونان فانها خرجت
من الدين ولكنها لم تخرج منه دفعة واحدة وانما قضت دهرًا طويلًا حتى ثبها لها الاستقلال
وليس بالمستغرب خضوع الفلسفة للتعالم الدينية زمن العصور الوسطى اذ كان كل المجتمع
الانساني بسائر شؤونه تحت حكم الكنيسة ومطلق تصرفها . وقد عرفت فلسفة هاتيك الايام
بالفلسفة المدرسية ولا يعني بهذا الاسم الاشارة الى مذهب خاص وانما يراد به الفلسفة التي
كانت تُعلم في الصوامع والاديرة من القسس والرهبان وسائر القائمين على خدمة الدين

وقد قسم مؤرخو الفلسفة العصر المتوسط الى ثلاثة ادوار الدور الاول يتبدى من ايام
شارلمان سنة ٨٠٠ م وينتهي سنة ١٢٠٠ م وكانت الفلسفة في غضون هذه الاعوام خاضعة
للدين كل الخضوع كما سبق فقلنا واما في الدور الثاني الذي ينتهي سنة ١٤٠٠ م فلهاما التجدد
به اتحاداً تاماً وهي في كلا الدورين على منهاج واحد وحالة مستقرة اي انها لا تتجاوز
في ابحاثها الى ما وراء منطق ارسطو وفلسفة اوغسطينوس . وقد نقل في الدور الثاني بضعة من
يهود الاندلس الى أوروبا شيئاً من مؤلفات ارسطو عن الطبيعة ورسائله عن النفس وبدا
اخرى من محاورات افلاطون مشروحة شرحاً دقيقاً من نوايح العرب وفلاسفة هاتيك القرون
كابن رشد وابن سينا وغيرها ومع ذلك ظلت الفلسفة المدرسية صاحبة السيادة المطلقة

ولها الخلل الاول

هذه هي الحالة الفلسفية، مبدى الدورين ولا ريب ان خضوع العقل الانساني لعلم واحد وبقاء السنين الطوال ضمن دائرة ضيقة لا يباح له الخروج منها ولا التطاع الى اقلها ورائها لما يذهب بمضاهة الذهن ويكسب الخواطر الخمول ويجعلها في حسان الجماد لان الحركة والنماء من خصائص الحياة

اما الدور الثالث الذي ينتهي سنة ١٦٠٠ م والمعروف بزمن النهضة فطابق الدورين الاولين من حيث انه استعمل ابامه بافتراق الفلسفة عن التعاليم الدينية افتراقاً ضيقاً ثم اخذ ذلك الافتراق بالاتساع شيئاً فشيئاً حتى انتهى الامر باستقلال كل منها استقلالاً تاماً . على ان من اسباب هذا الافتراق سقوط الدولة الرومانية الشرقية فانه الذي جعل محمد الفاتح الى القسطنطينية رحل كثيرون من علمائها الى ايطاليا والبلاد المجاورة لها وتكلموا معهم اليها الفلسفة اليونانية وسائر فنونها بحيث لم يأت القرن السادس عشر الا وانتشرت المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة في كل اوربا وانضم تحت لواء كل منها نفر من جهاذة العلماء وخيرة الاذكياء على ان هذا الدور لم يحدث في الفلسفة شيئاً جديداً غير اعادة التقدّم والتفاني في اتباعه وتهيئة الخواطر لاقبالت انقلاب الفلسفي

ولا جرم ان ذلك الانقلاب العظيم نتيجة لازمة عن النمو المعنوي الذي شتم في طيات القلوب زمن النهضة ثم تجلى للعيان اوائل القرن السابع عشر بظهور جديد من القوة غار بها على القديم فزعزع اركانها ونسف دعائمها نسفاً

هذا وقد انتهت العصور المتوسطة وانتهت معها الفلسفة المدرسية وجاء القرن السابع عشر بفلسفته الحديثة التي من خصائصها المميزة لها الاستقلال فانها استقلت اولاً عن علم الدين واتبع كل منها الغاية التي وضع لاجلها فغاية العلم البحث عن حقائق المرشود الى روضة الدين سامية وهي نشر الحقائق التي فوق الطبيعة والدفاع عنها وصار العلم لهذا العهد مباحاً للطالبيين من اي صنف كانوا ولم يعد مخصصاً بدعاة الدين ولا محصوراً في صوابهم وحسبك ان مؤسسي الفلسفة الحديثة لم يكونوا من خدمة الدين ودعائه بل كانت الواحدة منهما مشرعاً والثاني جندياً

ثانياً انها رفعت عنها سلاسل التقليد وسعت وراء الحقائق فسادت اليها جميع الامتحان والاستقراء . ألا ترى انه كان في مجرد الاستناد الى كلام سقراط واقتوال افلاطون وغيرها من اقطاب العلم ما يفتني عن الحججة القاطعة والبرهان الدامع كما كان زمن النهضة اي في القرنين

الخامس عشر والسادس عشر فان رجال ذينك العصرين بالغوا في الانقياد الاعمي للفلسفة اليونانية ولا رآء رجالها بحيث كانوا يترسلون لكل قضية قال بها فيلسوف من اولئك الفلاسفة ولو ان الادلة تكذبها وظواهر الحال تنقضها. وسبب ذلك الغلو في التقليد والمتابعة ظاهر لمن اطّلع على حالة الفلسفة في اوربا قبل زمن النهضة وعرف مكانها من الخلل ومحلها من القصور ثم نظر الى الفلسفة اليونانية فراها مع ما هي عليه تسمو الفلسفة المدرسية من وجود كثيرة فلا يعجب بعد هذا من تهافت الافرنج على درسها وانزائها من التجلّة مكاناً رفيعاً وحسبان اقوال رجالها فصل الخطاب في كل بحث فذلك طبيعي في كل امة لتصل بامة تعلوها حضارة وتفوقها ادراكاً ان تأخذ في تقليدها في سائر احوالها وتناهبها في جميع شؤونها. اما زعماء الفلسفة الحديثة كما كون وكاندي واينستيز وسنيوزا وديكارت ومن جاء بعدهم فلم يستندوا في ابحاثهم الى آراء الفلاسفة المتقدمين ولم يتخذوا كلامهم حجة لتأييدها يذهبون اليه بل لم يكن لها عندهم اقل اعتبار

فلما ان مؤسسي الفلسفة الحديثة هما باكون وديكارت فانهما رأيا انمخطاط العلم ووهن اصوله ووجوب اصلاحه فسعيا الى ذلك جهدهما حتى بلغا الغاية الا ان كلا منهما سلك الى ذلك سبيلاً غير سبيل الآخر فانهما وان اتفقا في سلوك طرق التحليل فقد اختلفا بان اتخذ ديكارت شهادة العقل فكان ابا للذهب الصوري *Iréalisme* وباكون تبحر شهادة الحس فحسب ابا للذهب الحسي *Sensualisme* وستورد هنا شيئاً من آراء كل منهما مبتدئين اولاً بياكون لسبق عهده

باكون

هو فرنسيس باكون فيكونت سان البنس وبارون فرولام ولد في لندن سنة ١٥٦١م وهو اصغر اخوته رأى فيه ابوه منذ نعومة اظفاره توقد خاطر ومضاء ذهن لا يكونان الا في اعظم الرجال ونوابغ الدهر فارسله وهو في الثانية عشرة من سنه الى مدرسة كبردى حيث تلقى العلم ثم خرج منها وأرسل الى سفارة دولته في باريز ولم يقم هناك طويلاً حتى اضطر الى الرجوع بسبب موت ابيه ولأنه لم يترك له من الثروة ما يقوم به ولهذا درس الحقوق ليحصل على المال فجملته الملكة اليبابات محامياً في مجلسها الخاص ثم انتهت عليه الالقاب والرتب جزاء تفوقه وبلاغة عبارته حتى قال فيه احد واصفوه : لم يكن ساهوه يمشون الا انتهاء كلامه وكان في اضعيف تلك المدة ينشر تأليفه الشهيرة التي كان يقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً وتدرج الى لغات كثيرة . ولا مور لا محل هنا لذكرها حكم عليه بالسجن ثم عفى الملك عنه فانقطع

الدرس والتأليف ومات سنة ١٦٢٦م وترك في الوجود اسماً عطرًا يبقى بقاء الذهب
 هذه لمحة من حياة باكون في مظهرها العالي بقي علينا ان نذكر الرجل في مظهره الفلسفي
 فانه اخذ على نفسه محور الفلسفة القديمة محوراً مطاقاً ولاجل ذلك وضع مؤلفه التمييز المعنون
 Instauratis Magna اي الاصلاح العظيم والكتاب مقسوم الى ستة اجزاء ابان في
 الجزء الاول منه وهن دعائم العلم لذلك المهدي ثم ذكر في الجزء الثاني امكنة الضعف وقال
 بوجود اتخاذ الملاحظة بدل الحدس والاستقراء عوض القياس ووضح في الجزئين الثالث
 والرابع انه يجب على الانسان الا يكتفي بالطريقة المار ذكرها بل يتعلم كيف يستخدمها وذلك
 ان يجمع اولاً بواسطة الملاحظة والامتحان الحوادث الطبيعية ثم يرتقي منها بعد ذلك الى معرفة
 اسبابها واكتشاف شرايعها العامة ثم يعود نزولاً من الشرائع العامة الى الحوادث الجزئية الخاصة .
 وابان في الجزئين الخامس والسادس انه لم يأت بعد الوقت الذي تعزز فيه طريقته
 بالاكتشاف ثم بين اوجه الفرق بين الفلسفة الحقيقية والعلم المدعوم على اساس واقعية وسمى
 الجزء الخامس دليل الفلسفة والجزء السادس الفلسفة الحقيقية

ولم يكن له مذهب محض في الفلسفة وان حسيوه ابا للذهب الحسي الشديد وانصرف
 معظم ابحاثه ان لم نقل كلها نحو الفلسفة الطبيعية وانحصر في الطبيعيات حيث لم ير له في
 مؤلفاته الكثيرة كلام عن الفلسفة البعيدة وانما عرفها في بعض مقالاته انها من الآثار القديمة
 التي ليس في درسها شيء من الفائدة سوى ضياع الوقت عبثاً . ولربما كان استغرافه في درس
 الطبيعيات وسكونه عما سواها من العلوم الفلسفية مما حمل عداته وحساده على ريبه بالكفر
 وحسبانوه من اعداء الديانة كذباً واقتراء وهو على الضد من ذلك فانه كان مبروراً يدي به
 بقوة العقيدة تشهد له كتاباته بشدة تمسكه بعروة مذهبه وظالما كره الصلوة والآية توهي ان
 معرفة الشيء القليل من الفلسفة الطبيعية تقود الانسان الى الكفر ولكن التمسك فيها يرجع به
 الى حظيرة الدين القويم . وليس باكون بالفيلسوف الوحيد الذي قام عليه حساده ينصبونه
 العدوان ويرمونهم بالكفر ظالماً ومهتاتاً فكثيرون من قبله ومن بعده تارث عليهم احقاد الحساد
 فاذاقتهم مرة العذاب

هذا وقد جعل باكون المعارف على ثلاث مراتب وكل مرتبة منها تتجه بقوة من قوى
 النفس فالذي يختص بالذاكرة من المعارف هو العلم التاريخي على قسمها المادي والطبيعي والذي
 يختص منها بالخيالة الشعر وما بقي من الفنون الجميلة والذي يختص بالعقل الفلسفة الطبيعية
 والعقلية واللاهوت

على ان غايته ان يكون العلم ذا فائدة عملية لا علماً نظرياً بحتاً لا فائدة منه غير ملء
الذهن بالاوهام الفارغة والتخرصات الكاذبة ولذلك اشار على قومه ان ينصرفوا الى درس الطبيعة
اكثر من انصرفهم الى درس كتب تلك الايام وان يستشيروا الحوادث بدلاً من استشارة
المؤلفين. ثم شن على قياس ارسطو غارة شعراء لم تبق عليه ولم تذر نذرتة بالعلم ورماء بالعجز
عن ابلاغ الانسان الى اكتشاف الشرائع الحاكمة في الكون. على ان مؤاخذه باكون للقياس من
هذه الوجهة مؤاخذه حقيقية لا ريب فيها فانه منذ ايام واضع العلم والملاحة بحسبونه الآلة الوحيدة
للإحاطة بالصحيح وتبيان الحق. وحتى الآن لم نزل له من الحقائق والاكتشافات ما يحملنا
على التمسك به شديداً وانزاله منا منزلة الذين اقتصرنا من العلم عليه وظنوا ان لا حقيقة الا
حيث انتظمت مقدمات القياس وكانت الحدود طبق ما رسم الميزان وعرف المناطقة
ولما كانت غاية باكون تقويض اركان القياس وادالة سطوته رأى من الضرورة ان ينشئ
طريقة جديدة تقوم مقامه وتكفي الباحثين مؤنته ولاجل ذلك وضع طريقته المسماة بالملاحظة
والاستقراء في كتاب له يعرف بالقانون الجديد Novum Organum وقد ابدع في تأليفه
ونسق نسقاً خالياً من الخدس عن مبدأ العالم وكيفية تكوينه كما جرت عادة كثير من العلماء قبل
زمانه وبين فيه بيلاعة تسخر الالباب وادلة قاطعة ان للطبيعة نظاماً لا تعداه وليس منهاشي
غير محكوم بشرائع ولا مقيد بقوانين وانها موجودة وحوادثها تقع امامنا ونشاهدها بجوانبنا. ثم
اسهب في ذكر المنافع التي تحصل للانسان من اكتشاف نظام الطبيعة ومعرفة قواها وان
لا سبيل الى ذلك الا في اتباع طريقة الملاحظة والاستقراء وعرف الملاحظة بانها مراقبة
ما يجري من الحوادث مراقبة تامة وتحققها جيداً حتى تميز الواحدة عن الاخرى تميزاً فاصلاً
وامتحان كل منها امتحاناً مدققاً على اوجه مختلفة ومتى تسنى له معرفة الحوادث الطبيعية بطريقة
الملاحظة والامتحان عليه ان يتخذ الاستقراء لمعرفة شرائعها وقواها. والاستقراء هو التوصل
الى الحقائق العامة من معرفة الامور الخاصة او هو انتقال الفكر من معرفة الجزئيات الى الحكم
على الكليات مثال ذلك اذا شاهدنا ان البرودة جمدت الماء ثم تأيدت تلك المشاهدة بالتكرار
وبالامتحان في احوال متباينة وكذلك شاهدنا ان الحرارة اذا اصابت الماء على درجة معلومة
حولته بخاراً نحكم حينئذ ان ما فعلته البرودة والحرارة في هذا الماء تفعله في كل المياه ومن
هذا الحكم ايضا نتقل الى حكم اعم بان البرودة والحرارة تفعلان بالزيت والخلب ونحوها
من السوائل فعلهما بالماء مع اختلاف قليل ثم نتقل من حكم عام الى حكم اعم منه وهو ان كل
السوائل تمددها الحرارة وتجمدها البرودة وتلك المشاهدة هي الملاحظة والحكم على العام من

الحكم على الخاص هو الاستقراء
 هذه خلاصة طريقة باكون بسطناها اجمالاً . على ان الاستقراء قديم العهد في الوجود
 بدليل ان هيبوقراط ابا الطب والفلسفة الطبيعية اتخذ مشكاة في معظم بحائمه وذكره
 ارسطو مراراً وعرفه بأنه نقيض القياس . اما رجال العصور الوسطى فما عولوا عليه ولا اتبعوا
 منها جهه بل ظل مجهولاً حتى زمن باكون الذي لم يبعثه من العدم المطلق بل انما ابرزه من الخفاء
 بظهور التيباب من القوة والحياة فظهر للعالمين في شكل جديد بالغاً من الاحكام والدقة ما
 قلب هيئة الفلسفة وغير وجه العلم وجاء بالفوائد الغزيرة التي تحصت معارف الاقدمين فانبتت
 الصبح ونسخت الفاسد واضافت اليها حقائق كثيرة ثم اكتشفت النواميس العلمية الخاصة
 المتسلطة على الطبيعة ودفعتها للانسان فاستخدم قواها وحول الماء بخاراً تطوى به الالهيات
 والقفار باسرع من ملح الابصار ويبرئ منه البواخر في عرض البحر تشق عيابه ولا يخاف شدة
 هياجه ولا تجشئ تلاطم امواجه وذلك له الكهربية فجعلت البعيد قريباً فصار الانسان يحادث
 اخاه وهو في مشرق الارض وذلك في مغربها كأنه اقرب اليه من جبل الوريد وهو منه ماهية
 البرق فلم يعد يحسبه عنيفاً ولا الرعد شيطاناً مرعباً واقام لقصوره الباذخة قضباناً تقويه شر
 الصواعق اذا انقضت ثم نظر الى الظلمة الدامسة فصير المساء صباحاً
 وهذه الكيمياء التي كان للاقدمين فيها من الآراء ما يضحك الكلكلي ومن المباحث ما
 تبيدها عقول صفار الطاية لهدنا هذا من نحو بحثهم عن حجر الفلاسفة الذي يحول الحديد
 والقصدير الى ذهب وفضة ومن مثل تفتيشهم عن اكبر الحياة الدواء الذي يلقون عن
 مستعمله الموت والمرض فلما جاءها الامتحان والاستقراء جعلها حقائق راهنة لا يشوبها الخزعبل
 ولا يتورها التموه فدخلت الصناعة فاحيت الصباغة والصياغة والديباغة وعمل الانوار والادهان
 والفتفتت الى الزراعة فحنت الزرع والفرس وعالجت امراضها فصارت الارض تفيض لبناً
 وعسلاً وامت داز الطب فاكشفت العقاقير الناجمة رحلت مواد الطعام فبينت المفيد منه
 والضار والفاسد من الماء والتي الى غير ذلك ما يطول بنا شرحه ويستغرق المجلدات متعددة
 هذا وان لم يكن باكون قد اكشف اكتشافاً عظيماً يؤيد فيه طريقته الا ان فضله عظيم
 حيث ارشد الباحثين الى الطوريق المؤدية الى ذلك فكان كما قال فيد احد وخصومه انه يشبه
 جندياً ينفخ بالبرق لحشد الجنود في ساحة الوغى ولكنه لا يقاتل بنفسه